الوِشاحُ الأسود
The black scarf

إذا جَارَيْتَ في خُلُقٍ دَنِيئًـــا فأنتَ ومنْ تجارِيهِ ســـــواءُ
رأيتُ الحرَّ يجتنبُ المخـــازِي ويَحْمِيهِ عنِ الغَدْرِ الوَفـــاءُ
يَعِيش المَرْءُ ما استحيَا بِخَيرٍ ويبقى العُودُ ما بقِيَ اللحـــاءُ
فلا واللهِ ما في العيشِ خيـــرٌ ولا الدُّنيا إذا ذَهبَ الحَيـــاءُ
إذا لم تخشَ عاقبةَ الليالـــي ولمْ تستَحْيِ فافعَلْ ما تَشـاءُ

أبو تمام

الوشاح الأسود

(١)

أشارَ الرقم [٧] على لوحةِ الأرقَامِ، الساعةُ تُشيرُ الثامنةَ صَباحًا، دَاخِل المستشفى العام، دَلَفَتْ مِنْ البَابِ سَيِّدَةٌ - فِي عِقْدِهَا الثَّلاثِين - مُنْتَقِبَةٌ وَعَلى وَجْهِهَا غلالة سوداء شفافة، وفي يدها ورقةٌ مَكْتُوبٌ عليهَا رقم [٧] تابعتْهَا الخَادِمَةُ تَحْمِلُ صَغِيّرًا لَهَا، أشَارَتْ إليّهَا بالتَوَقُفِ، انتظرَتْهَا بالخَارِجِ، أغلَقَتْ الممرضَةُ البَابَ .

نهضَ طبيبُ العُيون، نظرَ إليّهَا اهتزَ قَلْبُهُ تَفَرسَ عَيْنَيها.

. مَرحَبَا .. تفضلي عَلى هَذا الكُرسِي .

جلستْ مُنتصبةً بَعدَمَا وضعتْ حَقِيبَتَهَا الخَاصَة عَلى المكْتَبِ المُقَابِلِ، أضاءَ الطَبيبُ لوحةً بيضَاءَ لقياسِ النَظَرِ.

. لو سمحتِ سيدتي .. هل يمكن رفع الوشاح وخلع النقاب ؟!

. لا يمكن ذلك ..

. إذًا كيف نقيس النظر، سيدتي .. هذا إجراء لابد منه للتأكد من قياس النظر صحيحًا .

صمتْ، نهضتْ واقفة، وقالتْ : لابد من خلع النقاب ؟

. نعم سيدتي، وإلا كيف نفحص النظر جيدًا .

صمتَ الطبيبُ وتلعثمَ ...

. سيدتي .. هل من الممكن وضع إحدى يديك على العين اليسرى، وتفتحين العين اليمنى .

. سيدى .. أرجو أن تعافيني من قياس النظر...

. لماذا سيدتي، فنحن وصلنا إلى نهاية الطريق .

. أي طريق ....؟!

. طريق قياس النظر.

ابتعد واقترب إلى الشاشة، حروف تظهر كبيرة، ثم صغيرة، فأصغر .. يسأل وتجيب بصوتٍ خافتٍ .

. صوتكِ سيدتي ..

. ألم تسمعْ يا دكتور ..؟!

يبتسم .. أريدُ أن أتأكد .. ينقطعُ التيارُ الكهربائي .

. ما اسم الحرف الآن ... ؟

. لا يوجد حروف ... فَالشَاشَةُ سَوْدَاءُ ..!!

(٢)

تخرج من الحجرة يتدافع الواقفون خلف الباب يزمجرون الساعة تشير إلى العاشرة وعشر دقائق، يجلس الطبيب واضعًا رأسه بين كفيه، تتعارك الممرضة مع المراجعين، تخرج السيدة بصعوبة وقد نسيتْ حقيبتها الخاصة والوشاح والنقاب، تبحث عنها الخادمةُ في كل مكان .. تتأملها .. تعرفها السيدة، تربت على ولدها، يصرخ .. ماما .

. أنا ..أمك يا فهد ... مالكَ؟!

. يتفرس فيها ..!

. ماما .. إيش فيكِ ؟! ..... sorry mama .... مني عارفكْ .

(٣)

وصلتْ البيتَ يتأملها كُلُّ الواقفين متسائلين .. عمال .. خدم .. أطفال

. مَنْ .. مَنْ ؟!

ينظر كلٌ إلى الآخر.. يدفن نظراته في عبهِ صامتًا .

في حجرتها تلمح سيدةً غريبة في المرآة .. تصفع خدها بكفها الأيمن، قائلة : أين النقاب والوشاح ... ؟!! أحستْ بدوارٍ .. وبشيء أفقدها عذريتها !!!

(٤)

اليوم، الميعاد الثاني، انتظرها الطبيبُ على شغفٍ، نظرَ لقائمةِ الأسماءِ، رقمها [٨] وضع بجواره بجرة قلم [٦] فصار الرقم [٦٨] دون أن يدري !.

جلست أمام غرفة الطبيب تتابع الأرقام على الشاشة العلوية، ترتدي نقابًا وتتوشح بوشاحٍ أسود شفاف، قرأتْ الشاشة [٨] نهضت تمد ورقتها، تعتذر الممرضة وتحرك رأسها يمينًا ويسارًا مبتسمة قائلة : ليس رقمك سيدتي ..!

تضغط على أنيابها، تزمجر في نفسها بصمت مطبق، تتراجع وتجلس .. يحتك فخذاها ألمًا، تضربُ الأرضَ بقدميها، يصرخ ولدها، تتلفت بؤبؤتا عيني الخادمة خوفًا ووجلًا ..!

استلتْ من مخبئها تليفونًا محمولًا ككف اليد أو أكبر، ضَرَبْت بإصبعها على الشاشة تابعتْ الصُورَ تبتسمُ عندما رأتْ ولدها عند الميلاد يضحك، يصرخُ داخلها نداء الانتظار، نفسها تتحدثُ: زوجي لا تقلق فإني في أمان . تنتقل إلى الألعاب تُسلي ولدها، يُؤذن الظهر تشيرُ الساعةُ الثانية عشرة ظهرًا، تنادي الشاشة الرقم [٦٨] تفتح الممرضة البابَ، لم يوجدْ أحدٌ سوى الطبيب، الكلُ ذهبَ ليصلي الظهرَ جماعةً

(٥)

دخلتْ حجرةَ الطبيبِ تنظرُمِنْ تحتَ الوشاح بنظراتٍ تقدح شررًا، يجلس الطبيب لم يحرك ساكنًا، طلبتْ راجيةً منه الاستعجال .

.لِمَ تستعجلي سيدتي، فالوقتُ طويلٌ .. والمكان أمان ؟!

.أرجوكَ أيَّهَا الطبيبُ لو سمحتَ ... please if allowed

نهضَ الطبيبُ واقفًا .. طلب منها أن تجلس، وترفع الوشاحَ وتخلع النقابَ، أضاء لوحة الأرقام .. أشار...

.ما كل هذه الأرقام ..

.لم أرَ شيئًا ..!

.إذًا لابد من فحص النظر تحت المِجهر.

.لو سمحتِ اجلسي على هذا الكرسي .. ضعي ذقنكِ هنا ؟!

دس عينيه في العدسة يطلق شُعاعًا يتفحص عينها .. يراقب بؤبؤها، الخطوط الحمراء، الخطوط الزرقاء، الشبكية، القزحية ... العصب البصري، يشمُ رائحةً عطرةً .

.سيدتي .. خيرًا إن شاء الله .

.ماذا رأيتَ أيَّهَا الطبيبُ ؟

.أشياء لا يُحمد عُقباها، علينا أن نتأكدَ ...

.كيف ... ؟!!

.عليكِ سيدتي أن تتمددي على هذا الكرسي .. لأفحص قدميكِ ؟

.يا دكتور .. ألستَ طبيبَ عيون ...؟!

.نعم ... ولكن ألا تعلمين إذا اشتكى عضو تداعتْ له سائرُ الأعضاء بـ .....؟

أليس كذلك ؟ .. ربما يكون هناك نقصٌ في فيتامين أو ... أو ... وبذلك نستطيع تحديد العلاج الناجح .

جلسَ الطبيبُ القُرفصَاء ليتفحص قدميها بعدما خلع الحزاء .. انتظَرَتْهُ بُرْهَةً وهو ينظرُ ويتأملُ ويدقق النظرَ، كادَ أنْ يلتصقَ وجهُهُ بقدمِيهَا، فسحبَتْهَا وأطلقتها قذيفةً في وَجْهِهِ ؛ فَسَالَتْ عَيْنَاهُ دِمَاءً .. !!

الغلالة : حجاب صغير شفّاف تضعه النساءُ على قبّعتهنّ وقد يغطّي كلّ الوجه أو قسمًا منه .